الباب الأول

المصريون القدماء

الحضارة المصرية القديمة

حضارة المصريين عريقة فى القدم . ويظن أكثر المؤرخين أنها أقدم حضارة فى العالم . وإنك لتجد فى الآثار المبثوثة فى أرض مصر ، وفى المنقولة إلى كثير من دور آثار الأمم ، ما يدل دلالة صريحة على أن المصريين كانوا ينعمون بحضارة راقية ، فى حين كان الهنود والفرس واليهود واليونان والروم هملاً يتخبطون ظلام الجهالة ، ويعيشون فى الخمول والبداوة .

ولهذا كانت الأمم فى العصور الغابرة تمجد مصر . وتعرف لها مكانتها فى الرقى والتقدم ، وتعدها مدرسة الحكمة ومهبط العلوم والفنون ، وترسل اليها النابغين والنابهين من رجالها ، لينهلوا من مواردها ويقتبسوا من معارفها ، وحسبك من ذلك أن الاغريق أوفدوا اليها من فلاسفتهم فيثاغورس وأفلاطون ، ومن رجال تشريعهم ليكورغوس . وصولون ، فأقاموا بها ما شاءوا ، ثم عادوا الى ديارهم مزودين بما شاء الله من علم وحكمة .

الصناعة

قد دلت الآثار المصرية القديمة على أن المصريين القدماء نبغوا فى الصناعات ، ووصلوا بكثير منها الى درجة الكمال . فنسجوا الأقمشة ، وفلحوا الأرض ، وصنعوا الزجاج ، وبرعوا فى تلوينه ، وأبدعوا فى نقش الخرز وطلاء الكؤوس والآنية ، حتى لقد كانت الخرزة تخرج من يد الصانع كأنها الدرة فى يد الغواص . وقد استعملوا

الحديد والصلب، وجعلوا منهما آلات نافعة وأدوات مفيدة . وصاغوا الذهب والفضة حليًا وآنية وتماثيل . واتخذوا من قصب البَرْدِي الورقَ والأمراس والحبال والحصير والزوارق . وكانت لهم في تلوين السلات والحصير والملابس براعة تكاد تقصر دونها براعة أهل الأجيال الحاضرة .

العلوم والمعارف

قد بلغ المصريون القدماء في علومهم ومعارفهم مبلغًا عجزت عنه الأمم المعاصرة لهم ، ووصلوا ببعض فنونهم الى درجة من الكمال عجيبة مدهشة ، حتى ان بعض الباحثين لا يسلم بأننا نعرف الآن من بعض هذه الفنون أكثر مما عرف المصريون منها منذ أربعة آلاف عام

ومن علومهم الهندسة العملية ، وقد ساعدهم على الحذق والمهارة فيها حاجتهم الى الاشتغال بأمور الرى ، وشغفهم الشديد ببناء الأهرام والمقابر ، واقامة المسلات والأعمدة الضخمة في الهياكل والمعابد . فهذا «مينا» رأس الأسرات الملكية ، قد استطاع أن يحول مجرى النيل من الجبل الغربي الى مجراه الحالى . وهذا «أمنمحعت» الثالث ، قد شيَّد في الفيوم ذلك الخزان العظيم الذى حفظ به ماء الفيضان ، فأحيا الله به أرضًا واسعة مترامية الأطراف وقد كانت مقفرة مجدبة . ولقد كانت معارفهم الهندسية كلها عملية محضة ، وصلوا اليها بتجاربهم ، ولم يعتمدوا فيها على علم نظرى ، فانهم لم يصلوا في الهندسة النظرية الى درجة راقية .

ومن علومهم علم الفلك ، وهم من أقدم الشعوب التى اشتغلت به ، وقد كشف الباحثون في مقابرهم آلات لترصد ، ومصوَّرات عجيبة لشكل السماء : وهم أول من حَسَب طول السنة بالتقريب ، فجعلوا عدة أيامها خمسة وستين وثلاثمائة يوم ، وقد كان ذلك قبل المسيح بأكثر من أربعة آلاف عام . أما علم الطب فقد كانت قدمهم فيه راسخة ، ولم يَفْضُلهم فيه من الأمم القديمة إلاَّ اليونان بعد عصور طويلة ، غير أن

معارفهم الطبية كانت مشوبة بكثير من الخرافة ، فكان للشعوذة والرُّقى والتمائم وضروب السحر فى طبهم شأن يذكر . وقد كانت أدويتهم فى الغالب كريهة الريح قذرة التركيب ، تشمل بين عناصرها اللحومَ العفنة الفاسدة ، ودم الضب وأسنان الخنازير والبعر والبَرقين ، إلى غير ذلك مما هو مستقذر مستبشع . ولم يكن للمصريين القدماء معرفة بالتشريح ، لأن شريعتهم كانت تحرمه ، وقد كانوا يخلطون بين القلب والرئتين فى كثير من الأحيان

الكتابة

الكتابة المصرية أقدم كتابة فى العالم . ويرى أكثر المؤرخين أن الفينيقيين أخذوا كتابتهم عن المصريين بتغيير يسير ، وأنه عن الفينيقيين أخذت الأمم الأخرى ؛ فالكتابة المصرية على ذلك أساس كل كتابة فى العالم .

وقد وضع اليونان لحروف الكتابة المصرية القديمة لفظ هيروغليف ، أى الحروف المقدسة ، وقد بقيت هذه التسمية مرعية إلى اليوم . وتتركب الكتابة الهيروغليفية من علامات وصور مختلفة لأنواع الحيوان والنبات وغيرهما من الأشياء المادية ؛ كل صورة رمز لمعنى أو أكثر . ثم دخل هذه الكتابة شىء من التنقيح والتهذيب والاختصار ، فنشأت الكتابة الهيراطيقية التى كانت تكتب دائمًا من اليمين إلى اليسار ، على خلاف الخط الهيروغليفى فإنه كان يبتدأ به تارة من اليمين إلى اليسار ، وأخرى من اليسار إلى اليمين من غير فرق .

ثم دخل الكتابة الهيراطيقية شىء من التغيير والاختصار ، فكانت الكتابة الديموطيقية ، أى الكتابة العامية . وقد بقيت هذه الكتابات الثلاث مستعملة بين الناس ، غير أن الأولى كانت خاصة بالنقش على المبانى وبالشئون الدينية ، أما الوليدتان فقد كانتا تستعملان فى التجارة وفى بقية الأمور الدنيوية ، وفى نشر الأعمال الأدبية من تأليف وتصنيف .

اللغة وآدابها

بقيت الأقلام الثلاثة مستعملة إلى أن دخل الدين المسيحى بلاد مصر ، فقامت الكتابة القبطية مقامها . وهى مركبة من حروف الهجاء اليونانية ، ومن ستة أحرف أخرى توافق بعض أصوات مصرية ليس فى اليونانية ما يعبر به عنها ، وقد بقيت هذه اللغة القبطية إلى حوالى القرن الرابع عشر بعد الميلاد . وتدل الآثار الباقية الى الآن على أن آداب اللغة المصرية كانت مستفيضة . فقد كتب المصريون فى الدين والأخلاق وشئون الحياة العملية ، وألفوا الكتب المدرسية والأغانى والأناشيد ، وقد عثر الباحثون فى النواويس على كتب كثيرة فى الطب والسحر والزهد ، وعلى كثير من القصائد والرسائل التى كتبت فى أغراض مختلفة . ومن كتبهم الشهيرة التى وصلت إلينا كتاب الأخلاق وكتاب الموتى

أما كتاب الأخلاق فأقدم كتاب فى العالم ، ألفه « فتاح حوتيب » أحد أبناء الملوك فى الأسرة الخامسة سنة ٣٦٠٠ ق م ، وكان رجلاً حصيفًا مجربًا عاش من العمر مائة وعشر سنين . ولقد رأى أن يخدم أبناء وطنه بما استفادهُ فى حياته الطويلة من التجارب الواسعة ، فوضع هذا الكتاب وضمّنه جملة صالحة من الحِكم والمواعظ والأمثال ، فاهتدى الناس بهديها وانتفعوا بها أيما انتفاع . ومن وصاياه فى الحث على طاعة الوالدين ومليك البلاد قوله « يسعد الولد المطيع الخاضع ، ويحيا حياة طويلة حافلة بالخير والبركة ، وإنى لم أبلغ هذه السن العالية إلاَّ بفضل طاعة الوالدين ، وطاعة المليك ، وقيامى بواجبى لهم خير قيام » ومن وصاياه أيضًا فى الحث على محاسنة الزوجة وحسن عشرتها قوله « إن كنت عاقلاً فأحبب زوجتك وأكرمها ، ووفّرلها ما تشتهى من الغذاء والزينة ، واملأ قلبها بأنواع الغبطة والسرور ما حييت ، ولا تكن معها قاسيًا غليظ القلب »

أما كتاب الموتى فهو كتابهم المقدس ، وفيه صلواتهم وأدعيتهم ومواعظهم وأخبار آلهتهم ومعتقداتهم الدينية وآراؤهم فى الحياة والموت ، وهو دليل الأرواح عند انتقالها

من الدار الفانية إلى الدار الباقية . وفيه ما ينبغى للروح أن تقوله يوم الحساب دفاعاً عن نفسها فى قاعة العدل أمام الإله أوزيريس وقضاته الاثنين والأربعين

ولقد كان الكهنة يرتلون فصولاً من هذا الكتاب فى احتفالات الجنائز ، وكان أفراد الأسرة يجتمعون عند إحياء ذكرى فقيدهم فيتلون قطعاً منه فى غرفة القبر ، معتقدين أن روح الميت تسمعهم وقت التلاوة فتستفيد مما يتلون ، وتستعين بذلك على اجتياز المحن التى تلاقيها فى طريق الآخرة . وقد كان من عادة المصريين أن يضعوا هذا الكتاب المقدس مع الميت فى قبره ، ويختاروا فوق ذلك آيات منه فيكتبوها على جُعَل أو على قطعة من ورق البَرْدى ثم يعلقوها فى عنق الميت يوم دفنه ، كتميمة تحببه إلى الآلهة وتستميلهم إلى إكرامه وغفران ذنوبه .

طبقات الناس

كان سكان البلاد المصرية فى الأزمنة القديمة طبقات عدة متفاوتة فى المجد والشرف.

الطبقة الأولى : طبقة الكهنة ، وهى أشرف الطبقات وأعلاها ، وراموز العلم والغنى والجاه ، وربة السلطان والنفوذ والقوة فى البلاد . كانت تملك ثلث الأراضى المصرية معفىً من الضرائب ، ولم تكن أعمال أفرادها مقصورة على الخدمات الدينية كما يُتوهم ، بل كانوا يشغلون جميع مناصب الحكومة ومراتبها الرفيعة ، ويتولون جميع الأعمال والشئون التى تحتاج فى إدارتها إلى المهارة والعلم ، فكانوا الأطباء والمهندسين والمعلمين والقضاة والمؤرخين والمنجمين والحاسبين والكاتبين وجباة الضرائب والرقباء على الموازين والمكاييل ، وكانوا نصحاء الملك وأعوانه وأصحاب الرأى عنده وذوى الحظوة لديه ، يقربهم ويدنيهم من مجلسه ويُجزل لهم من العطاء ، ولم يقتصر على إعفائهم من ضرائب الأرض التى يملكونها على سعتها وكثرتها ، بل اختصهم بأرزاق واسعة يتقاضونها أجوراً لأعمالهم وخدماتهم ، ويعيشون منها فى سعة وبذخ ، حتى لقد كان لكثير منهم من القصور والضياع مثل ما للملك

الطبقة الثانية : طبقة الجنود ، ولها المحل الثانى فى الشرف والرفعة . وقد كان لكل فرد من أفرادها قطعة صغيرة من الأرض مُعْفاة من الضرائب تبلغ ستة (الأفدنة) ونصف (الفدان) ، ولكل من هذه الطبقة وسابقتها حقوق اختُصوا بها فى الدولة ، لم تكن لتمنح غيرهما من الطبقات ، وهما متقاربتان فى الشرف والنبل ، ولكن الهوة التى بينهما وبين غيرهما عميقة بعيدة المدى

الطبقة الثالثة : وتنقسم ثلاثة أقسام ، طبقة الزراع ورجال الملاحة ، وطبقة الصناع والتجار ، وطبقة العمال . ويلى هذه الطبقات الثلاث الموالى ، وهم عادة من أسرى الحرب ، وأحط فى الرتبة من العمال ، وقد كان الحقد آخذاً مأخذه بين هذه الطبقات ، فكثيراً ما ثار بعضها على بعض ، ولكن الكهنة والجنود كانوا موضع الإجلال والاحترام من الناس جميعاً

الديانة

المصريون القدماء من أشهر الأمم القديمة تعبداً وتديناً . ومن نظر فى معابدهم ومقابرهم ، وتأمل فيما حوته من الصور والنقوش والتماثيل ، خيل اليه أن المصريين أقوام خلقوا للعبادة والتنسك ، وأنهم لم يُعْنَوْا بشىء عنايتهم بتقديس الآلهة وتكريم الموتى والاستعداد للحياة الآخرة .

عبادة القوى الطبيعية

كان للبيئة تأثير كبير فى أفكارهم وعقائدهم الدينية ، فقد تأملوا فى الطبيعة حولهم فوجدوا الشمس والنيل قد خَلَقا مصر خَلْقاً ، وأنه لولاهما لما كانت مصر ولا كان أهلوها ، فاتخذوهما إلهين ، وتقربوا اليهما بالعبادة وتقديم الهدايا والقرابين ، ويُعد هذان الكائنان أقدم آلهة المصريين وأعظمها شأناً ؛ وقد كثرت آلهتهم بعد ذلك ، فعبدوا الأرض والسماء والقمر والنجوم وكل كائن له تأثير ظاهر قوى فى حياتهم وحياة بلادهم ، وكانت الشمس أعظم آلهتهم على الإطلاق ، ولذلك كثر عبّادُها واختلفت أسماؤها ،

فسميت رع ، وأمون ، وهور ، وفتاح ، وتوم ، وأوزيريس ، وتغنى الشعراء بتمجيدها وتعظيمها ، ومن ذلك قولهم فيها «إنك تظهرين كل صباح ، فما أسعد من سقطت على جبينه أشعتك . إنك تغربين ولكنك دائمة الوجود ! . . أيها الكوكب الطافى على بحر الفضاء العظيم بسنائك ولألائك البهى ، إنك تلد نفسك من غير شريك ولا معين ، على انك لا ولادة ولا فناء » ومن أقوالهم فى تحيتها وقد جاء ذكره فى كتاب الموتى «تحية لك أيها الساطع المنير الدائر فى فلكه ، تحية لك يا أعظم الآلهة و يارب الأرباب »

عبادة الحيوان

اعتقد المصريون أن الآلهة تحل فى بعض أجساد الحيوان ، فعبدوا من أنواعه ما رأوا أن روح الإله حلّت فيه . عبدوا الثور والجُعَل والباشق والقِط والكلب والتمساح ، ولم تكن هذه الآلهة عامة بين الناس ، بل كانت خاصة ، لكل إقليم إلهه الخاص به ، فبينما كان التمساح يعبد فى طيبة ، ويُتَزَلَّفُ إليه بأنواع القرابين ، كان الناس يقتلونه و يطاردونه فى جزيرة الفيلة .

ولقد كان احترام هذه الأنواع الحيوانية ، وتوفُّرُ الناس على عبادتها وحمايتها ، بالغين مبلغًا عظيماً ، يدل على ذلك أنه فى عهد بطليموس فى القرن الأول قبل الميلاد ، قتل أحد رجال الروم قطًا فى الاسكندرية ، فثار من أجل ذلك الشعب وقبض عليه وذبحه ، على الرغم من ارادة الملك وشفاعته فيه ؛ فعل المصريون ذلك على حين كانوا يرهبون جانب الروم ويخافونهم ، ويبذلون قصارى جهدهم فى استرضائهم والتودد اليهم ، مخافة الاشتباك معهم فى حرب أو عراك .

كانت هذه الآلهة تأكل وتشرب ، وكان أفضل ما يتزلف به المرء اليها وينال به رضاها ، أن يقدم اليها الطعام والشراب وكل ما تحتاج اليه فى حفظ حياتها ، قال «إسْتَرَابُون» المؤرخ الاغريقى المشهور يصف زيارته تمساحًا مقدسًا فى طيبة ، «رأيت هذا الحيوان رابضًا على شاطىء غدير ، ورأيت الكهنة قد اقتربوا منه ، ففتح اثنان منهم فمه وتقدم ثالث فحشاه بصنوف الحلوى والسمك المشوى ، ثم سقاه شرابًا من العسل»

ومن أعظم هذه الآلهة الحيوانية وأجلها شأنا العجل «أبيس» ، وكان يعيش فى معبد فى منف يحرسه الكهنة ويتولون خدمته ، وهو فى اعتقادهم الحيوان المقدس الذى يحل فى جسمه المعبود فتاح إله الشمس . وكان الكهنة يختارونهُ من بين عجول البقر ويتعرفونه بعلامات تجتمع فيه ، منها سواد شعره ووجود غرة فى جبهته مثلثة الشكل . وكانوا اذا اهتدوا اليه فرحوا فرحًا شديداً ، وأنفقوا سحابة يومهم فى رقص وغناء وغبطة وسرور ، وكانوا اذا مات عمَّهم الحزن واستمروا كذلك حتى يهتدوا الى غيره . على ان الكهنة ما كانوا ليتركوه يتخطى الخامسة والعشرين من عمره ، فاذا بلغها ولم يمت أغرقوه فى عين ماء ، ثم حنطوا جثته ، ودفنوه بجانب أسلافه فى احتفال مهيب .

عبادة الأصنام

مثَّل المصريون آلهتهم على أشكال مختلفة ، فمنها ما صورته صورة إنسان ، ومنها ما صورته صورة حيوان ، ومنها ما له رأس إنسان وجسد حيوان ، ومنها ما له رأس حيوان وجسد إنسان . وقد كانت أسماء هذه التماثيل تختلف باختلاف الجهات والأقاليم ، واليك تمثالَ إله الشمس ، فقد كان أهل منف يسمونه فتاح ، وأهل طيبة يسمونه أمون ، وأهل إدفو يسمونه هوروس ، وأهل دندره يسمونه هاتور ، وقد كان شأن الإله يختلف عظمة باختلاف المدينة التى يعبد فيها ، وأعظم الآلهة ما كان مقره قصبة الملك .

ولم يكن المصريون يعتقدون أن هذه التماثيل مجرد رموز للآلهة ، بل اعتقدوا أن الآلهة تحل فيها وتسكنها

عبادة الموتى

عبد المصريون أرواح الموتى ، وكانت هذه العبادة سائدة فى عصر الأهرام ، وكان المصريون إذا مات لهم ميت ، زينوا قبره بالكراسى والمناضد والسرر وأدوات الزينة والأسلحة والحراب والنقوش والتماثيل ، وملئوه بصنوف الطعام والشراب واللباس ، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم لا يرضون عن الميت إلاَّ إذا اهتم الأحياء بتكريمه عند وفاته ،

فاحتشدوا حول جنازته وقت دفنه ، وملئوا قبره بنفيس الهدايا وعظيم الذخائر . كانوا يعتقدون أن الميت الذى يُكرَّمُ هذا التكريم يرتفع إلى درجة الآلهة و يستحق العبادة والتقديس . ومن أقوالهم فى ذلك « إن الميت الذى يتقدم إلى الآلهة بقبر مملوء بالقرابين لن يصاب بضرر ، ولن يموت مرة ثانية ، وسيأكل و يشرب كل يوم مع أوزيريس ، ويخرج فى زورق مع هوروس يطوف حول الأرض بالليل والنهار ، و يصير إلها تحق على الأحياء عبادته »

التوحيد

لقد انتهى بعض العقول العالية فى العصور الأخيرة من عصور الدولة إلى أن الآلهة التى تملأ المعابد والمقابر لم تكن سوى مظاهر لإله واحد عالم بصير حى باق لا شبيه له يحكم فى السموات والأرض ولا تدركه العيون ، غير أن هذا التوحيد لم يكن سوى مذهب دان به بعض المفكرين وقصروه على أنفسهم ولم يكن يوماً من الأيام ديناً عامّا يدين به الشعب أو يمليه القساوسة على الناس .

آراؤهم فيما بعد الموت

يرى المصريون القدماء أن المرء متى مات انفصلت روحه عن بدنه ، وسعت مهرولة إلى حيث تغرب الشمس تحت الأرض . هناك تجد إله الأموات أوزيريس جالساً فى صدر قاعة العدل ، وحوله اثنان وأربعون حَكَماً من الآلهة ، فتتقدم إليهم خاشعة مستكينة ، فيحاسبونها على ما فرط منها أيام الحياة ، و يطلبون اليها أن تدافع عن نفسها سلباً و إيجاباً . فتقول فى دفاعها السلبى ، « ما أتيت فاحشة ، ولا ارتكبت منكراً ، ولا أغضبت إلها ، ولا صدت حيواناً مقدساً ، ولا سرقت مِيرَةَ الموتى ، ولا سلبت عصائبهم ، وما انتهكت حرمة المقابر ، ولا اغتصبت ذخائر المعابد ، وما كذبت ، ولا قتلت نفساً بغير حق ، وما أفسدت بين العبد ومولاه ، وما عذبت أيّما ، ولا حلت بين الرضيع ولبنه ، وما ألفت البطالة ، ولا خنت عهداً ، ولا طففت كيلا ، وما أجعت إنساناً ، ولا أبكيت

أحداً » وتقول فى دفاعها الايجابى « أطعمت الجياع ، وأسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، وقدمت القرابين للآلهة »

فإن قبل القضاة دفاعها ، وظهر لهم أنها كانت طيبة مخلصة فى حياتها ، أطلقوها تطير أحقابًا . وهنا تجتاز محنا وشدائد ، ثم ينتهى أمرها بأن تحشر فى زمرة الآلهة ونقيم فى النعيم الدائم . وإن قصرت فى دفاعها وظهر للقضاة إثمها وفجورها ، قضوا عليها بالعذاب ، فقضت فيه قرونًا ، ثم انتهى أمرها بالهلاك والفناء

الاله أوزيريس وقضاته فى قاعة العدل يحاسبون النفس على ما فرط منها أيام الحياة

كانوا يعتقدون أن الروح بعد الموت قد تعود إلى الجسد لتستريح فيه أحيانًا ، ومن أجل ذلك كانوا يُعْنَوْن جد العناية بأجساد موتاهم ، فيحنطونها ويحفظونها فى مقابر منيعة ، ويضعون بجانبها ما تحتاج إليه من طعام وشراب وأثاث ورياش .

التربيـة

أغراضها

كان زمام التربية المصرية القديمـة فى أيدى الكهنة ، فكانوا رجال العلم وحفظته والمعلمين والمؤدبين . وكان الرجل إذا التمس معلمًا لولده لم يجده إلاَّ بين رجال هذه الطائفة . وكانت التربية عندهم ترمى إلى تخريج المتعلمين فى الفنون والصناعات الرائجة فى ذلك الوقت، كالهندسة والبناء والنقش والتصوير والطب والكتابة والجندية والموسيقى وغيرها مما كان يضمن للإنسان فى ذلك العهـد عيشة راضية فى الدنيا ويكسبه رضا الآلهة ومحبتهم فى الدار الآخرة .

هكذا كانت التربية عندهم عملية مادية . أما التربية النبيلة التى ترمى إلى اكتساب المعارف والبحث فى الحقائق لذاتها وإن لم يكن من ورائها شىء من النفع المادى ، فلم يكن وقتها قد آن بعد . وقد كانت للتربية عندهم منزلة عالية ومقام رفيع ، فكانوا يحثون عليها ويُرغِّبون فيها ، ومما يؤثر عنهم فى ذلك قولهم « ما أشبه الجاهل بالحمار المثقل ، يحتاج دائمًا إلى من يقوده أو يدفعه » وقولهم « أقبل على عملك وتعلم الكتابة تكن أهلاً للقيادة والزّعامة بين الرجال »

نظمها ومعاهدها ومشاهيرها

كانت الحياة المدرسية تبتدئ فى الغالب والأطفال فى سنتهم الخامسة . وكانت ساعات العمل فى المدرسة تبلغ كل يوم ستا . ولم يكن للحكومة شىء من السيطرة على شئون التربية ، كما أنه لم يكن للأمة نظام مسنون فى تربية النشء ، وإنما كان الناس أحراراً ، فمن شاء منهم تربية أطفاله سعى وتلمس لهم المعلمين ليعلموهم مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وكان المحترفون بالتعليم الابتدائى كثيرين ، يقنعون باليسير من الأجر ، ولهذا كانت التربية الابتدائية سهلة المنال ميسورة للناس جميعًا . أما التربية العالية فقد كانت ميزة الأشراف ، مقصورة على ابنائهم ، وكانت معاهدها غالبًا فى معابد المدن الكبيرة من المملكة . وأقدم هذه المعاهد وأشهرها معبد فتاح فى منف ، ومعبد رَعْ فى عين شمس ، ومعبد أمون فى طيبة .

ومن المعاهد العالية التى تأخر بها الزمن ، متحف الاسكندرية الذى وصل إلى غاية كماله فى أواسط القرن الثالث قبل المسيح ، والذى صارت به الاسكندرية فى ذلك العهد أكبر مركز للعلوم والمعارف فى العالم أجمع ، يقصدها الفلاسفة والعلماء من جميع أرجاء المعمور ، ولا سيما الإغريق والروم

إلى جانب هذا المتحف قامت دار الكتب الشهيرة التى أسسها البطالسة ، وجمعوا اليها الكتب من جميع الأقطار المتمدينة ، فكانت عونًا للطلاب والفلاسفة والباحثين والمنقبين . ولا غرو فقد حوت خزائنها ما يزيد على سبعمائة ألف كتاب .

كانت أغراض التربية العالية فى هـذه المعاهد تنحصر فى إعداد الطلاب لأعمال الحياة وتخريجهم فى المهن والحرف التى يريدون مزاولتها فى حياتهم العملية ، ولهذا كان غير مألوف أن ينهج الشاب فى حياته منهجًا غير الذى رسمه لنفسه أيام التربية ، وأهم هذه المهن وأعمها شيوعًا بين الطلاب مهنة الكتابة ، وقد كانت تعد أساس التعليم العالى ، وأول خطوة يخطوها الشبان إلى المناصب العالية فى الحكومة .

والكتّاب فى تلك العصور القديمة وإن كانت الحاجة إليهم قليلة لانتشار الجهل وفُشُو الأمية كانت لهم منزلة عالية بين الناس ، وكانت لهم أعمال كثيرة متنوعة مختلفة ؛

الكاتب المصرى

منها نسخ الكتب المقدسة ، وتحرير الوثائق الرسمية ، وإدارة الضياع الواسعة والمتاجر الكبيرة التى لا تستقيم أمورها بغير الحساب والكتابة . ومنهـا تسيير الأعمال الجندية والمدنية والدينية وغيرها من كل ما يحتاج إلى حذق ومهارة .

وقد كان الكتّاب طبقتين دنيا وعليا ، أما الدنيا فهى التى كانت تقنع بالتربية الابتدائية وكان تلميذها إذا أتم هذه التربية ذهب من فوره إلى مصنع أو متجر أو مكتب عام ، فجلس بجانب من فيه من الكتاب المجربين ذوى الدُّرْبة والخبرة الواسعة ، وتعلم منهم كيف يكتب العقود ويحرر الوثائق بصيغها المألوفة ، وأخذ عنهم الخط الهيراطيقى الذى أسلفنا ذكره .

وأما الطبقة العليا فقد كان شأنها غير ذلك ، كان طالبها يتم دراسته الابتدائية ، ثم يلتحق بمعهد من معاهد التربية العالية المتخذة فى المعابد المشهورة ، وهناك يقبل على حذق الهيروغليفية والهيراطيقية والديموتيقية ، ثم لا بد له بعد ذلك من دراسة الفلسفة والقانون ، ورياضة نفسه على الاخلاق الكريمة الطيبة .

ومن أراد أن يُعد نفسه لمهنة أخرى غير الكتابة ، فلا بد له بعد إتمام التربية الابتدائية من أن يأخذ نفسه بمنهاج خاص يؤهله للمهنة التى اختارها ، فمن رغب فى هندسة البناء كان حتماً عليه أن يدرس الرياضة وعلم الآلات (الميكانيكا) ، وأن يُحصّل كثيراً من أبواب التاريخ ومسائل الدين . ومن رغب فى الطب درس علم وظائف الأعضاء وألم بشىء من ضروب السحر والرُّقى ، ودرس إن شاء بعض الأعضاء الرئيسة فى البدن كالعين والمخ والأسنان والمعدة دراسة مطولة . ومن أراد أن يكون كاهناً ، أقبل على درس الكتب المقدسة وشعائر الدين دراسة واسعة تامة ، وتمكن فى علوم الرياضة والعرافة والنجوم ، وغذا نفسه بلبان المعارف العصرية المتنوعة .

وفى القرن السابع قبل الميلاد حدث انقلاب فى وجوه التربية فى مصر ، وذلك لأن أبسمتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين أراد الانتفاع بحضارة الأمم التى أخذت فى الظهور ، وفاقت المصريين فى الاختراع والابتكار ، فعقد حِلْفاً مع الولايات الإغريقية ، وفتح مدائنه للتجارة الأجنبية ، وعلم أولاده علوم الإغريق وفنونهم ، فأثر هذا فى التربية المصرية ، وصبغها بصبغة إغريقية ، ولم يمض على ذلك غير يسير من الزمن ، حتى كانت اللغة الإغريقية موضوعاً معدوداً فى مناهج الدراسة المصرية

طرائقها وأساليبها

من المقطوع به أن الأحداث كانوا يقضون أوقاتًا طويلة فى تعلم الكتابة الهيروغليفية، وهى تلك الكتابة التى يحق للمصريين أن يفتخروا بها ما شاءوا ، فقد ابتكروها ابتكاراً ، ولم يكن لغيرهم من الأمم السالفة فضل عليهم فى ذلك .

ومما لا شك فيه أن حوافظ الأطفال وذواكرهم كانت تلاقى فى تعلم هذه الكتابة عناء شديداً ونَصَبًا كبيراً ، فقد كانت حروفها وعلاماتها كثيرة متنوعة تكاد تبلغ الألف عداً ، وهذا لا يطعن فى أنها كانت سهلة المأخذ قريبة المنال .

كانت طريقة تعليم هذه الكتابة أن يكتب المعلمون نماذج للأطفال يحاكونها ، فيأخذ كل طفل قلمه ولوحه الخشبى ويجتهد فى محاكاة النموذج الذى وضع له ، حتى إذا ما قطع هذه المرحلة وأفلح ؛ انتقل به المعلم إلى الكتابة على ورق البَرْدِىّ ، فيملى عليه أبياتًا من الشعر ، أو حكاية قصيرة ، أو نبذاً من كتاب دينى ، أو فقرة من كتاب مدرسى . وقد يأمره بنسخ قطعة قصيرة أو طويلة من كتاب يعينه له . وبهذه الطريقة كان المعلمون يستطيعون أن يأخذوا الأطفال بجودة الخط وحسن الأسلوب معًا .

وقد عثر الباحثون على كثير من كراسات الخط التى كان التلاميذ يتعلمون فيها الكتابة ؛ عرفوها بما كان فيها من آثار إصلاح المعلمين ، والباحث فى هذه الكراسات يرى كل ورقة من أوراقها قد كتبت من وجهين ، فى أحدهما آثار أعمال التلاميذ فى تحسين خطوطهم ، وفى الآخر مسائل حسابية ورسائل تجارية وكتب معاملات ، كل ذلك دليل قاطع على أنهم كانوا يؤخذون بفنون عمليـة كثيرة إبان تعلمهم الخط ، ويظهر أن دراسة اللغة وآدابها لم يكن لها طريق غير طريق المحاكاة ، إذ لم يعثر لهم إلى الآن على كتاب فى القواعد ، أو على معجم من معجمات اللغة .

وقد مدح أفلاطون طريقة المصريين فى تعليم الحساب ، ولا عجب فقد استطاعوا فى تلك العصور السحيقة أن يصلوا إلى بعض الطرق الحديثة التى تستعمل الآن فى تعليمه ، وهناك من الأدلة ما يثبت أنهم كانوا يعتمدون فى تعليم الأعداد على الألعاب والمشوقات الحسية .

أما المعلمون فكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد ، يرهقون تلاميذهم و يسومونهم سوء العذاب ، ولا يعرفون إلى الرحمة سبيلاً ، وكانت العصا أحب أدوات التأديب إليهم . ومما يؤثر عنهم فى ذلك قولهم « إن الطفل أذنه على ظهره ، فهو لا يسمع إلاَّ حين يضرب » وكثيراً كانوا يلجئون فى اللَّمم إلى التو بيخ والتأنيب ، وفى عظيم الجرم إلى الحبس ، فكان من المألوف أن يقضى على المذنب من الطلاب بأن يلازم المعبد لا يغادره ثلاثة أشهر كاملة .

النساء وحظهن من التربية

كان للمرأة عند قدماء المصريين منزلة رفيعة ومكانة عالية ، وكان لها من الإجلال والاحترام أكبر حظ وأوفر نصيب . كانت سيدة فى بيتها عزيزة فى قومها ، مهيبة بين الخدم والحشم ، نافذة الكلمة بين جميع أفراد الأسرة ؛ وقد كان زوجها يجلها و يوليها من أنواع العطف والحنان ما لم تتمتع به نساء الشرق فى ذلك الحين ، كان الرجل لا يتزوج فى الغالب أكثر من واحدة على الرغم من أن الشريعة المصرية القديمة كانت تبيح تعدد الزوجات ، وكان الملوك والأغنياء الذين لا يقنعون بواحدة يتَسَرَّرُون و يتخذون مَنْ يشاءون من السُّرِّيَّات ، للاستمتاع بهن من غير زواج شرعى

كان النساء يتمتعن بحريتهن كاملة ، فيخرجن إلى الأسواق بغير نقاب ، و يحضرن الاحتفالات الدينية ، و يغشين المنتديات ، و يحادثن الرجال ، و يشتركن معهم فى شئون الحياة ، و يماثلنهم فى الحقوق المدنية . كنَّ يشغلن المناصب العامة ، و يتولين الزعامة والملك ، واليك نِيتُوكْرِيس وحَتْشِبْسُوت وكليو بطرة ، فقد جلسن على سرير الملك ، وأدرن شئون البلاد ، وأخبارهن فى كتب التاريخ معروفة مستفيضة .

أما التربية فقد كان لهن فيها نصيب ، كنَّ يتعلمن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، ولكنهن لم يتعدين فى ذلك حدود التعليم الأولى ، ولم يتذوقن طعم التربية العالية فى حال من الأحوال ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان هذا التعليم الأولى خير معوان لهن على تربية أولادهن فى المنازل فى الأدوار الأولى من أدوار الحياة